

وهو ضنا وفي نفوسنا وقلوبنا ١٢

تعقيب

عقليتنا المستعمرة !!

في المؤتمر الثقافي العربي الذي عقد أخيراً في لبنان ، اقترح أحد الأعضاء أن يرسل المؤتمر بكتاب إلى مجلس الأمن يؤيد به قضيتي مصر وفلسطين ، فنهض له الأستاذ فؤاد أفرام البستاني ورد افتراحه بأن المؤتمر ثقافي ولا سياسي ، فليس من شأنه أن يرسل بهذا الكتاب ولا من مهمته أن يقتحم هذه الأمور التي هي من شأن رجال السياسة .. فقال الراوي وكاد الأمر أن يتطور أو يتهور . لولا أن الأستاذ إسماعيل القبانى بك رئيس وفد مصر حسم الأمر بلاقته فطلب تحويل كافة الاقتراحات إلى اللجان الخاصة ..

وليس هذا بالأمر الغريب ، ولا هو مما يشير الدهشة ، فإننا أبناء الشرق العربي قد مُنِّينا بالاستعمار الفاجر دهرًا فهدم كيانتنا ، وحطم قوميتنا ، وحلل شخصيتنا ، وكانت خدعته الكبرى في ذلك أن أقنعنا بأن الدين شيء لا يتصل بالدنيا ، وأن العلم شأن غير السياسة ، وأن السياسة خطة غير الوطنية ، وأن الوطنية هي أن يجد الإنسان ما يملأ به بطنه .. وهكذا أصبحنا نحيا الحياة ، إذا أخذنا في حاجة منها فإننا نستدبر جميع النواحي الأخرى ولا يمكن أن نجتمع في ذلك بين طرف وطرف ، وليس رأى أخينا أفرام البستاني إلا أثرًا من آثار تلك الخدعة الاستعمارية التي نكبنا بها الاستعمار اللثيم ..

ألا ليت الأستاذ أفرام يقول لنا ما قيمة هذه الثقافة وما جدواها وما حاجتنا إليها إذا لم نحقق لنا حياة حرة كريمة ، وإذا لم نحقق تلك العقبات التي نمترض طريقنا ونذل أعناقنا ، وإذا لم تغم نفوسنا بالقوة والشجاعة والبطولة ، وإذا لم نحقق لنا شخصية واضحة وقومية متميزة ، وإذا لم تكن صلتنا بالحياة وطريقنا إلى المستقبل وسلاحنا الذي مكافح به الظلم ، أجل ماذا تكون الثقافة إذا لم يكن كل هذا أثرًا من آثارها في حياتنا

أقد رأينا في الحرب الماضية كيف كان العلماء يبذلون علمهم وبرهمنون قرائحهم في سبيل نصرته أمهم ، وكيف كان رجال الفكر والفهم يتصدون للدفاع عن أوطانهم ويحاطرون في ذلك أكثر مما يحاطر الجنود ... بل نحن أبناء الشرق ندرك ونعرف أن الاستعمار لم يكن يسير في أى بلد من بلادنا إلا وراء خطوات مستشرق يتخذ العلم وسيلة للتحكم أو وراء مستكشف يحمل الاستكشاف طليعة للتملك ، أو وراء مدارس وجامعات ينشئون فيها أبناءنا على هراهم ، ويثرون بها في نفوسنا من العقائد مثل ما يمتد « السيد أفرام » من أن الثقافة لا شأن لها بالسياسة ..

إننا نجاهد للتحرر من الاستعمار السياسي والاقتصادي ، وسنفوز بذلك لا شك ، وإن التحرر منها علم الله لأسهل وأيسر من التحرر من استعمار آخر يكرب نفوسنا وينخر في عظامنا إلا وهو الاستعمار العقلي الذي يجب علينا أن نقاومه ونطارده وأن نعلن عليه حرباً لا هوادة فيها ، فإبه السهم القاتل والداء الدفين ..

أولادنا وأولادنا :

وقع في يدى تقرير اللجنة الأولى للمؤتمر الثقافي العربي قرأت فيه انجاساً طلياً يدعو إلى التنبطه ويثير بحير كثير ، فقد أشار « بأن تكون الدراسات الاجتماعية أساساً لتدريس التربية الوطنية ، على أن يشمل هذا الأساس إبراز الاتصال الجغرافي التام بين البلاد العربية وما كان لذلك من دور خطير في قيام الحضارات وتقدم الإنسانية ، » كما تضمن الإشارة إلى الواجب في « إبراز دور الإمبراطورية العربية في التاريخ ، وتوضيح الفكرة في أن المروية لم تكن لدين ما ، بل إنها كانت ولا تزال أمانة في عنق كل عربي ، وأن التعصب لم يعرف في البلاد العربية إلا في العصور التي حكم فيها الأجانب » ثم ينوء التقدير « بالأخوة في المروية والدعوة إلى التكتل والعمل على التذكير الدائم بمساوىء الاستعمار وضرورة اتخاذ النظام الديمقراطي أساساً في تنشئة الطالاب » .

وبعد أن أشارت اللجنة في تقريرها هذا إلى ضرورة تدريب

الوباء ، وانقسموا في هذا إلى فريقين : فريق يرى أنه يتولد تولداً ذاتياً متى كانت هناك البيئة التي تساعد على وجوده ونموه ، وفريق يرى أنه لا يظهر في مكان إلا منقولاً إليه من مكان آخر وكان على رأس هذا الفريق الدكتور سالم باشا سالم طبيب المية الخديوية يومذاك ، وقد جرت مناظرات بين الفريقين كانت أعنف وأشد من المناظرات التي قامت بين « كوخ » وأطباء ألمانيا في ذلك الوقت ، ولكن الأطباء الألمان أخذوا بالولون البحث حتى وصلوا في هذا إلى مانفموا به الإنسانية وكانت حكومتهم تشجعهم على ذلك بألوف الجنيهات ، أما الذي جرى عندنا فإنه بسبيل العبرة ويدعو إلى العبرة ، ذلك أن الخديوي توفيق خشي يومذاك من امتداد المناظرة بين الفريقين فألنى مجلس الصحة وكفى الله الأطباء شر القتال .

مضى ما مضى ، قلن يجدى التحسر عليه ، ولكن الذي يدعو إلى الأسف أن ما توصل إليه أطباؤنا يومذاك من نظريات وآراء ، وحقوقه من تجارب واختبارات قد طوى كله في مطاوي النسيان ، وذهب في خبر كان ، ولو كان رجال العلم عندنا يذكرون أنفسهم ويمتدون بشخصياتهم لكان في رجال الطب من عكف على موالاة ذلك البحث والبناء على ذلك الأساس الذي وضعه الأطباء المصريون فكان حقن لمصر في ذلك نفراً لا ينسى .

ولكن أين في ألبائنا اليوم من يذكر ذلك الجهد ؟ أو يكون عنده شيء من خبره ، أليس من العار أن يكون في مستشفى الإسكندرية غرفة اسمها « غرفة كوخ » تخلد بها ذكرى ذلك الطبيب الألماني وزيارته لمصر ، ومع هذا فليس فينا من يذكر شيئاً عن أولئك الأطباء المصريين الذين بذلوا من الجهد ، وأبدوا ما أبدوا من علم واسع وخبرة نافذة وتجارب انتفع بها « كوخ » وغير « كوخ » من الأطباء .

في ماضينا مواقف لا بد أن نبني عليها حتى تترفع ، إنها مواقف عظيمة مشرفة يمكن أن نتمز بها بين الأمم ، ولكننا مع الأسف أمة تجهل ماضيها وتنتسى نفسها !

« الجاهل »

الطالبة على أساليب الحياة المختلفة في ميادين التعاون الاجتماعي والرياضي والكشفي دعت إلى قيام اتحاد للطلبة العرب ومؤتمرات سلم ونجيات كشفية ووضع أناشيد مشتركة وتبادل الطلبة العرب بين الأقطار العربية وإنشاء بيوت لهم في كل قطر عربي ..

وما أريد أن أورد كل ما تضمنه ذلك التقرير ، فقد تضمن تفاصيل مطولة ، وهي تفاصيل تلتقي كلها في رغبة واحدة ، هي تقوية الشعور بالقومية العربية في نفوس أبناء الجيل الجديد حتى لا نكون الوحدة العربية ميثاقاً مكتوباً في الورق ، بل نكون دماً يتدفق في المروق .

إنه كلام طيب جداً ، وإنما العبرة بالتنفيذ القريب ، وحين نبداً أول خطوة في هذا السبيل نكون في الواقع قد بدأنا السير لتحرير عقليتنا من إرضاء الاستعمار .

ولما إذا ننسى أنفسنا :

اهتمت الصحف المصرية على اختلاف نزعاتها بتتبع « الكوليرا » كما يسمونها الآن أو « الميضة » كما كانت تسمى من قبل ، واهتمت إلى جانب ذلك بسرد تاريخ ذلك الوباء اللعين في مصر ، وما كان له من هجمات عنيفة على المصريين ، ثم ما كان لرجال الطب من جهود صادقة في مداومته واكتشاف ميكروبه وتحدثت في هذا عما كان من حضور الدكتور كوخ الألماني إلى مصر عام ١٨٨٣ على رأس بعثة طبية لاكتشاف هذا الميكروب وعما كان من وصول بعثة طبية أخرى من معهد باستور بفرنسا لثل هذا الغرض ، ولكن الصحف المصرية جميعها نسيت في هذا المقام جهداً مصرياً كان من الواجب أن يذكر ، وكان من الواجب أن يرجع إليه رجال الطب عندنا فيسجدون فيه من التجارب المفيدة والخبرة النافذة ما لا يقل عن تجارب بعثة « كوخ » ولا بعثة « باستور » .

ذلك أنه لما تفشى وباء الكوليرا في مصر عام ١٨٨٣ م وجاءت البعثات الطبية من الخارج للدراسة أحوال هذا الوباء وإثبات تجاربها عنه عكف المجلس الصحي في مصر هو الآخر على مثل هذا العمل وأخذ أعضاؤه بالولون البحث والتجربة بشأن هذا